محاضرة:

قضية الوضوح والغموض

1 ـ مفهوم الوضوح والغموض لغة:

أولا: الوضوح: ماهو مُعبَّر عنه من دون إبهام، أو غموض. والوَضَحُ: بياضُ الصُّبح. والعربُ تُسمي النَّهارَ الوضَّاحَ والليلَ الدُّهْمَانَ. والوَاضِحُ من الإبل الأبيض. واستوضحْتَ الأمرَ والكلامَ إذا سألتَهُ أن يوضِّحه لك. والوَاضِحُ ضدُّ الخامِلِ لوضوح حاله وظهوره، ووضَّاحٌ فعُّالٌ من الوضوح والظهور.

ثانيا: الغموض: صعوبة الفهم والإدراك واختفاء المعنى وعدم الوضوح.

2 ـ الوضوح والغموض في الشعر العربي القديم:

"لعل أول ما يلاحظ على معاني الشاعر الجاهلي أنها معانٍ واضحة بسيطة ليس فيها تكلّف ولا بُعْد ولا إغراق في الخيال سواء حين يتحدث عن أحاسيسه أو حين يصور ماحوله في الطبيعة، فهو لا يعرف الغلوّ ولا المغالاة، ولا المبالغة التي قد تخرج به عن الحدود المعتدلة".

لقد كان الشعر العربي القديم في معظمه شعر وضوح وكان الخيال "يقف عند جدار الأشياء والأجزاء، لايتعدّاها إلى الأعماق والكليّات، هو خيال وصفي يستعيد صورة العالم مثلما هي دون تغيير جذري أو ابتكار غريب أو بعث جديد. ولذلك يبقى الخيال مألوفا متعقّلا، واضحا".

ثم جاء العصر العباسي وبرزت الشكوى من صعوبة أو غموض أو إبهام بعض شعر تلك المرحلة. وكان سبب ذلك أن "أشياء استجدّت في العصر العباسي فأصابت بعض شعر شعرائه، وخصوصا أبا تمام بالغموض، ومن هذه الأشياء الفكر والثقافة، ففي هذا العصر تُرْجِمت عن الهنود والفرس واليونان معارف علمية وفكرية وفلسفية، وفي هذا العصر كانت مجالس للمحاورات والمناظرات الفكرية والمذهبية فخلق هذا مناخا ثقافيا واسعا عميقا شاملا اقترب منه بعض الشعراء وانغمس فيه آخرون". هذا المناخ الثقافي الملون بتلك الثقافات الواردة كانت له تأثيرات على الشعر العربي العباسي. والغموض الشعري هو أحد هذه التأثيرات.

ويورد الآمدي في كتابه " الموازنة " سؤال أبي سعيد الضرير، وأبي العَمَيْثَل لأبي تمام: لِمَ لا تقول مايُفْهم؟ فقال لهما: لِمَ لا تَفْهَمان مايقال؟ وقد كانا من أعلم الناس بالشعر.

3 ـ الوضوح و الغموض في النقد الأدبي:

برزت قضية الوضوح و الغموض في النقد الأدبي القديم بشكل واضح في العصر العباسي مع ظهور مذهب الصنعة والبديع عند بعض المحدثين آنذاك. وكان أبو تمام أبْرَزَهم فهو شاعر يميل إلى الغموض وتعقيد المعنى، واستعمال الغريب من الألفاظ فتنبه النقاد إلى هذا الغموض. "ولكنَّ حديث القدماء عن الغموض حديث مفرّق متناثر في دراسات المفسرين والأصوليين، واللغويين، والنحاة، والبلاغيين. كما كانت عناية القدماء بالتطبيق في دراستهم لهذه الظاهرة، أكثر من عنايتهم بالتنظير"

وتعددت المصطلحات الدالة على الغموض باختلاف العلماء بين لغويين وبلاغيين ونحاة وكانت من هذه المصطلحات: الخفاء والوحشي، والمُستغلقُ، والمعاظلة، والمُبهمُ، والغريب واللبس، والبعيد...إلخ من مصطلحات وُظِّفت عند الحديث على ماجاء غامضا من كلام العرب .

"وكما تعددت المصطلحات الدالة على الغموض عندهم اختلفت الأسباب التي عزوا إليها غموض المعنى وإبهامه، فكانت أحيانا بسبب من البنية الصوتية للكلمة والكلام، أو بسبب من تعقد التركيب النحوي، أو بعد الإستعارة و التشبيه و استغلاقهما، أو وضعهما وضعا لم يألفه عمود الشعر العربي".

واهتمام النقد بقضية الوضوح والغموض في العصر العباسي لا يعني غياب جذور للقضية في العصر الجاهلي، حيث كان الشاعر العربي يحرص في الجاهلية على تقديم معاني أشعاره في قوالب وعبارات فصيحة بليغة تضمن الوضوح لمتلقّيها ولعل بعض الشواهد النقدية التي حفظتها كتب النقد القديم تشير إلى اهتمام العرب بالوضوح و ذمِّ الغموض وقد أورد صاحب الموشح أن النّابغة الذبياني قال للنعمان بن المنذر:

تَرَاكَ الأرضُ إمَّا مِتَّ خِفًّا وتَحْيَ إنْ حَيِيتَ بهَا ثقِيلا

فقال النعمان: هذا بيتٌ إنْ أنت لم تُتبعه بما يُوَضِّحُ معناه كان إلى الهجاء أقرب منه إلى المديح.

وتستمر صفة الوضوح في الشعر وتصبح مطلبا من مطالب النقد في صدر الإسلام فيعدُّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه زهيرا بن أبي سلمى أشعر الشعراء لأنه:" لا يعاظلُ بين الكلام، ولا يتَّبع حوشيَّه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه" فزهير أشعر الشعراء لأنه لا يُداخل بين مكونات العبارة، ولايستخدم غريب الألفاظ، فالمعاظلة و صفة الوحشيّ أو الحوشيُّ من الألفاظ تنطبق على الغامض من الشعر.

ويتفق الكثير من نقاد الأدب العربي قديما بضرورة تحرّي الوضوح و الحرص على تقديم المعاني بشكل يسهُلُ على السامع والمتلقي بشكل عام فهمَهُ . من ذلك ما ذكره الجاحظ في البيان والتبيين من كلام بشر بن المعتمر حين مرَّ بإبراهيم بن حَيَلَةَ وهو يعلِّم فتيانهم

الخطابة حيث قال: " وكن في ثلاث منازل فإنّ أولى الثلاث: أن يكون لفظُك رشيقا عذبا وفخمًا سهلاً ويكون معناكَ ظاهرًا مكشوفًا وقريبا معروفا" .

وذكر ابن رشيق في كتاب العمدة أن الرماني يرى بوجود ضربين من التشبيه، تشبيه حسن وتشبيه قبيح، فالتشبيه الحسن هو الذي يُخرجُ الأغمض إلى الأوضح "

وعدُّ أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين ميل بعض الشعراء إلى الغموض عجزا عن الإفصاح ويقول في ذلك: " فأما من أراد الإبانة في مديح، أو غزلٍ، أو صفة شيء فأتى بإغلاقٍ دلَّ ذلك على عجزه عن الإبانة، وقصوره عن الإفصاح".

ويفرّق عبد القاهر الجرجاني بين الغموض المحمود وبين التعقيد، فالشعر الجيد في نظره هو ما تميَّز بنوع من الغموض ينجلي بعد التأمل وطلب المعاني وإعمال الفكر. "ومن المركوز في الطبع أنَّ الشيء إذا نيلَ بعد الطلب له أو الإشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف".

أما التعقيد المذموم فهو ما أتعب الذهن والفكر من دون فائدة "لأجل أن اللفظ لم يُرَتَّبْ الترتيب الذي بمثله تحصل الدلالة على الغرض، حتى احتاج السامع إلى أن يطلب المعنى بالحيلة."

أما حازم القرطاجنّي فإنه "يقر أنَّ بعض أنواع الغموض لا بدَّ أن يتوفر في الشعر مثل اللغز والكناية، والإشارات إلى الأحداث الماضية والقصص مما يتطلب من القارئ ثقافة خاصة" .

ويُفصِّل حازم القرطاجني في أوجه الغموض وأسبابه فمنها ما يرجع إلى المعاني أنفسها، ومنها مايرجع إلى الألفاظ والعبارات المدلول بها على المعنى ومنها ما يرجع إلى المعاني والألفاظ معا" .

1ـ غموض بسبب المعنى: يرى حازم أنَّ الغموض في المعنى يأتي لأسباب عدة منها:

ـ أن يكون المعنى في نفسه دقيقا ويكون الغور فيه بعيدا.

ـ أن يكون المعنى مبنيا على مقدمة في الكلام صَرَفَ الفهم عنها طول الكلام بعدها.

ـ أن يكون الكلام متضمنا معنى علميا أو خبرا تاريخيا أو يكون مضمنا إشارة إلى مثل أو بيت فتُشَكّلُ هذه الإشارات جزءا من أجزاء المعنى مما يعني الجهل بها غموض المعنى أو جزء منه .

ـ أن يكون المعنى على سبيل الكناية، ولكن المستوى الحقيقي للغة لا يدل بوضوح على ذلك.

ـ إحتمال المعنى لتأويلات مختلفة.

ـ أن يكون التعبير عن المعنى غير دقيق نتيجة دلالة الكلمات على معنى آخر شبيه بالمعنى المُراد.

2ـ غموض بسبب الألفاظ والعبارات:

1ـ أن يكون اللفظ حوشيًّا أو غريبا أو مشتركا.

2ـ أن يقع في الكلام تقديم وتأخير، أو يتخالف وضع الإسناد فيصير الكلام مقلوبا.

3ـ أن يقع بين بعض العبارة وما يرجع إليها فصل بقافية أو سجع فتخفى جهة التطالب بين الكلامين.

4ـ أن تُفرِطَ العبارة في الطول فيتراخى بعض أجزائها.

5ـ فرط الإيجاز الذي يكون بقصر أوحذف.

وبالرغم من قبول الغموض في بعض المواضع فإنَّ القرطاجني على العموم منحاز إلى الوضوح فنراه "يصف للشاعر حيلا يستطيع أن يُخفِّف بها من درجة الغموض في شعره أو يزيلها، فإذا كان المعنى نفسه دقيقا وجب على الشاعر أن يؤديه بأبسط عبارة أو أن يقرن المعنى بما يناسبه من الأمور التوضيحية. وانتصارًا منه للوضوح ينصُّ باعتماد القصص المشهورة حتى لا تكتسي الإشارات بالغموض، وينصح الشاعر أن يبتعد عن العبارات المتعلقة بصنائع أهل المهن أو العبارات الدالة على المعاني العلمية "

ويتفق حازم القرطاجني بهذا مع معظم النقاد القدامى الذين رأوا في وضوح المعاني السبيل الأمثل لوصولها إلى المتلقي، وبيَّنُوا أن الوضوح لا يتنافَى مع الخيال والتصوير واستخدام الإشارة والرمز. فالوضوح لايعني السطحية أبدا وإنما الأمر مرده إلى الطريقة التي تُقدَّم بها هذه الإشارات والرموز والإستعارات.